شـــرياً[1]، وأخذ خطياً[2]، وأراح عليَّ نعماً ثرياً[3]، وأعطاني من كل رائحة زوجاً[4]، قال: كلي أم زرع وميري أهلك[5].

فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: كنت لك كأبي زرع لأم زرع)[6].

هذه هي منزلة عائشة في قلبه ﷺ.. هي منزلة أم زرع عند أبي زرع، غير أن النبي ﷺ أحبّها أكثر من حب أبي زرع لزوجته، لأن ذاك طلق، والنبي ﷺ لم يطلق.

هذا الحب لا شـــكّ أغـــاظ المنافقين في المدينة.. أغاظ ابن ســـلول ومن معه من الخفافيـــش، كمـــا أغاظهم من قبل انتصـــار النبي ﷺ في غزوة بنـــي المصطلق، التي تشعبت آثارها حتى زلزلت قريش..

آثار غزوة بني المصطلق

انتهت غزوة بني المصطلق بانتصار النبي ﷺ على المشركين، وانتصار عائشة رضي الله عنها على المنافقين، لكن تلك المعركة تركت لدى قريش وحلفائها شـــعوراً أســـوداً، ورعباً ترتعد منه أوصالها.. كأن الجبال تتزلزل من حولها.. كأن الكواكب تتهاوى على رؤوســـها، فقد امتدّت يد محمد ﷺ حتى طالت جيرانهم بني المصطلق، الذين عادوا بعد المعركة أحراراً بعد مصاهرتهم للنبي ﷺ، وقريش الآن تخشـــى أن تمتد إليهم يد محمد ﷺ فتأخذهم إلى غير رجعة.

ويبدو أن تلك الضربات التي تلقاها المسلمون من قريش وغيرهم من الوثنين في أحد والرجيع وبئر معونة وغيرها.. لم تزدهم إلاّ صلابة وعزماً واتّقاداً.. كأنها النار التي تذيب صـــدأ الحديد.. كانت لقاحاً عاد بعده الجســـم صحيحاً منيعاً، فها هو النبي ﷺ يرســـل جيشاً لرصد قوافل قريش، التي تمر بمحاذاة الساحل.. في غزوة يحلو للبعض تسميتها:

---

(١) السري هو الشريف والشري هو الفرس الذي لا يفتر في سيره.

(٢) الرمح.

(٣) كثيرة والمقصود الثروة.

(٤) أي من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم.

(٥) أعطيهم.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨).

غزوة سيف البحر

كان قائد هذا الجيش هو أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، وكان ضمن ذلك الجيش كبار الصحابة.. منهم سعد بن عبادة، وجابر بن عبد الله الذي يقص علينا بعض أحداث تلك الغزوة فيقول: (بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة فخرجنا وكنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجمع فكان مزودي تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً، حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت: ما تغني عنكم تمرة)[1] تمرة في اليوم الواحد مما اضطر ذلك الجيش إلى أكل نبات الخبط، وهو علف للحيوانات، ولذلك سمي ذلك الجيش فيما بعد: (جيش الخبط).

يقول جابر رضي الله عنه لمن سأله عن تلك السرية: (بعثنا رسول الله ﷺ وأمَّر علينا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة.. تمرة، فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟

قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله[2].

كان سعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما يأكلان من أشجار الخبط وهي علف للإبل.. كانا يعانيان ماتعانيه تلك السرية، ويشعران بما تشعر به، فكان لسيد الأنصار وابنه موقف عظيم.

الكرم الأنصاري يتدفق كأمواج هذا البحر.. قام سعد بن عبادة بشراء مجموعة من النياق من أصحابها، ثم سلمها لابنه قيس وأمره بنحرها للسرية، التي أحرق أجوافها شجر الخبط.

يقول قيس رضي الله عنه: (كنت في الجيش فجاعوا قال: انحر. قلت: نحرت. ثم جاعوا، قال: انحر. قلت: نحرت. ثم جاعوا، قال: انحر. قال: نحرت. ثم جاعوا. قال: انحر. قال: نهيت)[3]

---

(١) صحيح البخاري ٤ - ١٥٨٥.
(٢) صحيح مسلم ٣ - ١٥٣٥.
(٣) صحيح البخاري ٤ - ١٥٨٥.

ترى كم نحر من ناقة جزور..؟

يقــول جابر أن ســعد بن عبادة رضي الله عنه (نحــر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه)[1] لأن هذا الكرم الأنصاري يتخطى الحدود، وإن لم يتم إيقافه فسيقضي على مطايا الســرية، وقد تعودُ إلى المدينة على الأقدام إن لم يتم إيقاف تدفقه.

كانت أياماً عصيبة ومريرة.. كان فارســها ســعد بن عبادة الكريم، وكانت رحمة اللــه فوق ما يتصورون، فقد رأى بعضهم صخرة كبيرة جداً.. كانت ســوداء وملســاء تتمدد على الساحل.. اقترب الجميع منها فإذا هي ليست بصخرة.. إنها حوت عملاق يســمونه العنبر. كان ميتا لكنه ينبض بالحياة لهذه الســرية، وقــد فرح الجميع بهذه المفاجأة السارة، وشكروا الله عليها، لكن أبا عبيدة تذكر أن الميتة لا تجوز، ثم تذكر كم يفتح الإسلام من أبواب الفرج في سويعات الضيق.. تذكر أن هناك ضرورة الإبقاء على هذه الأرواح والأجساد المنهكة الهزيلة، فسموا الله وأكلوا واستخرجوا من زيت الحوت، وشربوا ودهنوا أجسادهم المتعبة، وشعورهم الشعثة لمدة تتجاوز نصف الشهر.

هالهــم حجم الحوت فقاموا بقياس ارتفاع أحد أضلاعه، فغرزوا الضلع، ثم نادوا أطول رجل في تلك الســرية وأمروه بأن يركب أرفــع جمل أيضا، ثم أمر بالمرور، فمر تحت ذلك الضلع العملاق.

يقول جابر وهو يتحدث عن تلك المشاهدات العجيبة: (انطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر.

قال أبو عبيدة: ميتة. ثم قال: بل نحن رســل رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلوا)[2] (فأكلنا نصف شهر وادهنا بودكه حتى صلحت أجسامنا)[3] (حتى ســمنا ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو كقدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها)[4]

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨٥.
(٢) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.
(٣) صحيح البخاري ٥-٢٠٩٣.
(٤) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

وبعد مرور نصف شـــهر من عثورهم على هذا الحوت الهائل أمر أبو عبيدة جنده بالعودة للمدينة، فقد أدوا المهمة التي أرســلوا من أجلها، وعادوا أحسن أجساداً وأكثر قــوة، ثم اقتطعوا ما قــدروا على حمله من لحم الحوت، ولما وصلوا إلى المدينة أخبروا نبيهــم ﷺ بذلــك، ففرح بفضل الله عز وجل على جنــده، وطلب منهم أن يطعموه من ذلك اللحم الطيب.

يقــول جابر رضي الله عنه: (وتزودنا من لحمه وشــائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رســول الله ﷺ فذكرنا ذلك له؟ فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا..؟

فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكله)[1].

أما قريش فقد شعرت بخطورة الوضع بعد تلك السرايا، وبعد غزوة بني المصطلق، فقررت التحرك، لأنه لابدّ من حســم الأمر قبل أن يستشري خطر المسلمين.. قبل أن تفاجأ قريش بمحمد ﷺ وجيشه يطوفون حول الكعبة، ويحطّمون الأصنام.

هذا هو الكابوس الذي يقضّ مضجع أبي ســفيان ومن معه من الوثنين.. هذا هو الخوف الذي تعيشه مكة، لكن ماذا عن المدينة..؟

هناك شــعور لا يختلف عن هذا الشــعور، فداخل دول الإسلام لم يكن الأمر كما يحبّ رســول الله ﷺ وصحابتــه تماماً.. كان هناك المنافقون الذيــن خرجوا للتوّ من هزيمــة الإفك، وهنــاك أيضاً اليهود الذيــن أغاظهم نصر النبــي ﷺ في غزوة بني المصطلق، وزاد غيظهم نصر الله لعائشــة، فتحوّلــت حصون اليهود إلى قدور ضخمة لطبخ الخيانة والمؤامرات.

اليهود يجمعون الأحزاب

لتنفيــذ مؤامرة كالانتحار، فالذي يقومون به الآن ضرب من الانتحار. لأن فشــل مؤامرتهــم هذه يعني نهايتهم.. اليهود اليوم خناجر تســافر في الظلام، ولا تدري من

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

تصيب.. إن بينهم وبين قائد الدولة المسلمة عهداً بألاّ يخونوا، ولا يعتدوا، ولا يتآمروا، وإلاّ فإن مصيرهم سيكون مصير بني النضير. لقد سامحهم ﷺ بعد خيانتهم الأولى، وهم الآن طامعون في تسامح آخر إن فشلوا في مؤامرتهم، يقول أحد الصحابة: (إن يهود النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير وأقرّ قريظة)[1]

كان ذلك بعد غزوة بدر عندما (كتبت كفار قريش بعد واقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء -وهي الخلاخيل- فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ، أجمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المنصف، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك، آمنّا بك.

فقصّ خبرهم، فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحصرهم، فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلاّ بعهد تعاهدوني عليه. فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم.

وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم وخشبها)[2]

منظر حزين يتكرّر على اليهود، ويتباكى عليه اليهود، ويطالبون العالم أن يبكي من أجلهم.. وهم يجيدون التمثيل والتباكي، لكن أكثر ما يجيدونه هو سبب التباكي..

أكثر ما يجيده اليهود هو المؤامرات والخيانات، والطعن من الخلف، والطعن في الظلام، وعندما يتلقون العقاب الرادع.. تسيل أنهار الدموع والبكاء والشعر على مصيرهم البائس، وكأنهم لم يفعلوا شيئاً! وبنو قريظة يستحقون مصير بني النضير،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨) وأبو داود (٣٠٠٥) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح مر معنا رواه أبو داود (٣٠٠٤) وقد صححه الإمام الألباني وانظر تعليقي على قوله رحمه الله هناك غزوة بني النضير.

لكــن النبي ﷺ منحهم فرصة، فإن فشــلت مؤامرتهم الجديدة فإن عقابهم ســيكون مضاعفاً.

دعونا نراقب هذا الوفد اليهودي الذي ســافر سراً إلى مكة، ليجتمع بأبي سفيان وقيادات المشركين هناك، وليعرضوا عليهم مشروعاً عسكرياً يسحقون به دولة الإسلام والتوحيد، بعد أن فشل مشروع كعب بن الأشرف اليهودي مع قريش، فتم الإجهاز على كعب على يد محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وها هو:

المشروع اليهودي من جديد

يحملــه يهود من بني النضير فشــلت خيانتهم، فتورموا مــن الحقد، ومعهم يهود آخرون تثيرهم هذه التجربة وهذا المشروع.

لم تنطلق الرصاصة من مكّة، بل من حصون اليهود فـ(إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم: ســلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري «وكنانــة بن أبي الحقيق النضري» وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رســول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكّة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ[1]، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله؟

فقالت لهم قريش: يا معشــر يهود، إنكم أهل الكتــاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه.

فهــم الذين أنزل اللــه فيهــم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا

(١) سبق أن خرج كعب بن الأشرف لكنه قتل قبل إكمال مشروعه.

لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾)[1].

لم يكتفِ اليهود بالتآمر عليه ﷺ، بل أضافوا إلى خيانتهم ونقض عهدهم والوثيقة المكتوبة بينهم وبين النبي ﷺ.. أضافوا إلى قائمة جرائمهم جريمة هي الأشنع والأحقر. جريمة تنزّ بالخسّة والوقاحة. زوّر اليهود وأباحوا لنفسهم القفز على كل مبدأ وعقل وحقيقة، فمنحوا للوثنيين المشركين صكّاً بالبراءة من كل إثم في كل ما يرتكبونه من جاهلية، وسلبوا النبي ﷺ كل حق وحقيقة يملكها.. جعلوا التوحيد هو الباطل، وطلبوا من عَبَدة الأخشاب والأحجار الاستمرار في طقوسهم المنحطة.. فعلوا ذلك كلّه وهم أهل كتاب، وقد قرأوا الكثير.. الكثير عن محمد ﷺ ونبوّته وصفاته، فما العقاب الذي يستحقه هؤلاء..؟

مسلسل الوحل اليهودي لم ينتهِ بعد، فبعد أن وضعوا قريشاً في إحدى جيوبهم.. توجّهوا نحو قبيلة غطفان القوية، فأغروها بالنبي ﷺ والمدينة، وأغروها بتمر المدينة ونخيلها ونسائها، فاستجابت، ورفعت المؤامرة رأسها، وتدلّت ثمارها أمام اليهود والوثنيين، لكن الخبر وصل إلى النبي ﷺ عن طريق رجل متهور من غطفان، يدعى «الحارث الغطفاني».

غطفان تطلب ثمن انسحابها من الأحزاب

وقد أرسلت من أجل هذه المهمة أحد وجهائها، رجل اسمه: الحارث الغطفاني.. ركب راحلته، وعندما استقرت به على أرض المدينة.. بحث عن النبي ﷺ، ولما وقف أمامه.. أملى على النبي ﷺ شرطه للانسحاب من التحالف اليهودي الوثني، وكان

---

(١) حديث حسن رواه ابن إسحاق بأسانيد عدة منها: حدثني يزيد بن رومان عن عروة ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك.. ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة.. وهذه الأسانيد كلها مرسلة وإن كان عبد الله بن كعب له رؤية.. وهي لا تقوي بعضها البعض لأنه ربما كان مصدرها واحداً وهو مجهول.. لكن لها شاهد يرفعها إلى درجة الحسن وهو عند ابن إسحاق أيضاً (تفسير ابن كثير - الأحزاب): حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس.. وهو سند حسن بالشواهد من أجل محمد بن أبي محمد.. وابن إسحاق لا يتهمه.. انظر التقريب (٥٠٥) حيث قال عنه مجهول.

شرطاً يفوح صفاقة وتغطرساً، لكن إجابة الأنصار كانت كالسيف على رأسه، فقد رفض الأسدان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ كل أنواع الابتزاز.. مهما كان مصدرها وقوّتها:

(جـاء الحارث الغطفاني إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، ناصفنا تمر المدينة «وإلا ملأناها عليك خيلاً ورجالاً»؟

فقال ﷺ: حتى أستأمر السعود: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ يشاورهما «فقال: إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وأن الحارث يسألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا حتى تنظروا في أمركم بعد..؟

قالوا: يا رسول الله أوحي من السماء؟ فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع لهواك ورأيك؟

فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منّا تمرة إلا بِشرى أو قرى»[1] فقالا[2]: ما أعطينا الدنية[3] من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام..!! فرجع إليه الحارث، فأخبره. فقال: غدرت يا محمد.

فقال حسان بن ثابت:

يـا حـارِ مـن يـغـدر بـذمـة جـاره ... مـنـكـم فـإن مـحـمـداً لا يـغـدر
إن تـغـدروا فـالـغـدر مـن عـاداتـكم ... والـلـؤم ينـبـت فـي أصـول السـخـبـر
وأمـانـة الـنـهـدي حـيـث لـقـيـتـهـا ... مـثـل الـزجـاجـة صـدعـهـا لا يـجـبـر

فقال الحارث: كفّ عنا يا محمد لسان حسان، فلو مزج به ماء البحر لمزجه)[4] ولم يكن لسـان حسان أشدّ من لساني السعدين.. لم يعرض ﷺ ذلك الأمر على أبي بكر،

---

(١) أي كانوا لا يستطيعون الحصول على تمرنا إلا بالشراء أو الضيافة.

(٢) قال السعدان: ابن عبادة وابن معاذ.

(٣) أي لم نعط الصفة والخصلة المذمومة في الجاهلية فكيف وقد أسلمنا.

(٤) سنده حسن رواه البزار زوائد ٢-٣٣١ واللفظ له، والزوائد للطبراني ٦-٣٤ : حدثنا عقبة بن سنان، حدثنا عثمان بن عثمان الغطفاني، حدثنا محمد ابن عمرو عن أبي سـلمة عن أبي هريرة. أبو سـلمة بن عبد الرحمن تابعي ثقة مكثر. التقريب ٦٤٥ ومحمد بن عمرو بن علقمة حديثه حسـن من رجال الشـيخين، التقريب ٤٤٩ وعثمان صدوق من رجال مسـلم السـابق ٣٨٥ وعقبة بن سنان، البصري صدوق من شيوخ أبي حاتم، الجرح والتعديل ٦-٣١١.

ولا على عمر، بل على أهل دار الهجرة والكرم، وأصحاب الشـأن الأوّل فهو لا يتخلى عن عهوده ومواثيقه. فذهب ذلك الوثني إلى قومه خائباً حيث كان الأنصار له كالموت.. بالسيوف بالشعر. عندها أدرك ﷺ خطورة الموقف والأحزاب.

تأمّـل ﷺ وضع المدينة، فوجـد المعركة هذه المرة مختلفة، فقريش اليوم ليسـت وحدهـا.. معها غطفان، ومعها بقايا بني النضير الذين اسـتطاعوا زحزحة يهود بني قريظـة عن عهدهم وميثاقهم مع النبي ﷺ، وقـد يلحق بقريش غيرهم من حلفائهم، والوقت قصير لا يحتمل التأخير، والجيش المسـلم لا يسـتطيع التصدّي لهذه الجموع خارج المدينة؟ فالأفضل البقاء في المدينة.. حيث يشـارك الجميع في تلك المعركة دون اسـتثناء، وحتى لا يتكـرر ما حدث في أحد، لكن خيانة اليهـود تثير المخاوف، وليس هناك وقت لبناء أسوار كأسوارهم، فليكن الحفر بدلاً من البناء.

حفر الخندق

قرّر ﷺ أن يحفر خندقاً يحصن به الجهة الشـمالية للمدينة من هجمات قريش ومـن معها، لأن بقية الجهات صعبة الاقتحام لكثـرة النخيل والصخور والجبال، وفنّ القتال لا يعني المهارة في استخدام السلاح فقط، بل المهارة في استخدام وتسخير كل شـيء يحيط بالمحارب. وقد تفنّن ﷺ في تسخير تضاريس المدينة وطبيعتها في هذه الحرب القادمة.. غير المتكافئة عدداً واستعداداً.

وجد عليه السلام أن جهة الشمال مفتوحة لاحتمالات مخيفة، فقرّر ﷺ إغلاقها، فبـدأ حفر الخندق.. بدأ بحفره بيديـه، فهو الذي ضرب أوّل معول في ذلك الخندق، الذي سيشكّل مفاجأة للوثنيين واليهود ومن معهم.

(ضرب رسول الله ﷺ في الخندق بيديه، ثم قال:

بسـم اللـه وبـه بدينـا ولـو بدنـا غيـره شـقينا

حبذا ربنا وحبذا دينا)[1]

(١) سنده صحيح رواه الحارث. المطالب ٤-٤٠٤ حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن سليمان التيمـي، عـن أبي عثمان. معاوية الأزدي ثقة، التهذيب ١٠-٢١٥ وشـيخه ثقة حافـظ التقريب ١١٠. وأبو عثمان النهدي أدرك الجاهلية وأسلم في عهد النبي عليه السلام وقد ذكره الذهبي في التجريد ١٨٦ ضمن الصحابة وليس ضمن شيوخه تابعي.. وقد روي موصولاً عن سلمان عند البيهقي لكن سنده ضعيف.

فتهاوت المعاول بعده تعزف خندقاً، والحناجر تتغنى شعراً وحماساً. وسط هذا الحماس والتفاني.. كنت لا تدري هل كان النبي ﷺ معهم، أم هم الذين كانوا معه..؟ وسط ذلك الجو الشتوي البارد.. خلال ذلك الغبار المنبعث من الخندق.. لا تستطيع تمييز القائد من الأتباع..؟

أحد الصحابة اسمه سهل بن سعد يقول: (كنّا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا)[1] أما البراء بن عازب فيقول: (كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، ولقد رأيته وارى التراب «شعر» بطنه «وكان رجلاً كثير الشعر»)[2] (كان ﷺ ينقل التراب حتى وارى شعر صدره، وكان رجلاً كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبد الله «بن رواحة»:

اللّهمّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته «أبينا.. أبينا» «يمد صوته بآخرها»)[3].

كان ﷺ يحمس من حوله بأبيات الصحابي الشاعر عبد الله بن رواحة رافعاً ومادّاً بها صوته، وكان لا بد من فعل ذلك، فالجو مشحون بالجوع والبرد والحذر فلا بد من إشعال جذوة الحماس.

لم يكتف ﷺ بذلك.. كان يذرع المنطقة.. يتفقّد كل شيء.. يحتاط لكل شيء، ثم يعود لمحاربيه.. يشجّعهم.. يحفر معهم.. يدعو لهم.. يحتضن فداءهم وإخلاصهم، وهم في حالة جوع شديد، وبرد قارس.

(خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال:

اللّهمّ إن العيش عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٨).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٢٣٦) والزوائد له (٣٠٣٤).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٤) والزوائد له (٤١٠٤ - ٤١٠٦).

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً[1]

البيعة تتجدّد.. والحماس يتجدّد، لكن الجوع والتعب يتجدّد أيضاً. فما هو طعام كل مجموعة من هؤلاء المحاربين الأشدّاء، الذين يحتاجون إلى كل ثانية وطاقة.

طعام رجال الخندق

يقول الفتى الأنصاري أنس بن مالك: (جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبدا

ويقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللّهمّ إنه لا خير إلاّ خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة

قال: ويؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن)[2]

هؤلاء العظماء ليس لهم طعام سوى شعير مطبوخ بسمن عتيق بشع الطعم والرائحة، بينما يتمتع الوثنيون بأطايب الطعام، أمّا اليهود، فلديهم مخزون أكثر من كاف لمثل هذه المؤامرة، ولهم منافذ مفتوحة على حلفائهم، بينما يعيش محمد ﷺ وجنوده طقساً من الحصار والبرد والجوع والطعام الخشن والقليل، وتمضي أيام على هؤلاء الأخيار من المهاجرين والأنصار.

ثلاثة أيام من الجوع والحفر

نقلوا فيها الحجارة من عمق الخندق إلى عمق جوعهم وبطونهم.. قدّو الحجارة من الخندق، وألصقوها ببطونهم من شدّة الجوع، ثم ربطوها، في الوقت الذي تسلّل فيه المنافقون كالحيات إلى بيوتهم.. إلى شوائهم ونسائهم وشرابهم.. كأن الأمر لا يعنيهم.. كأن المدينة ليست وطناً لهم..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٠).

كان ذلك الجوع امتحاناً لإيمان هؤلاء المؤمنين الذين صبروا واحتسبوا.

يقــول جابر: (لما حفر النبي ﷺ وأصحابه الخندق، أصاب النبي ﷺ والمســلمين جهد شديد، فمكثوا ثلاثاً لا يجدون طعاماً، حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع)[1].

لكن ماذا بعد ثلاثة أيام من الجوع والطعام القليل..؟

إن رحمة الله قريب من المؤمنين.. جاءت المعجزة في بيت جابر، فزال عن المؤمنين شيئاً ممّا بهم.

طعام جابر والمعجزة

جابــر بن عبد الله.. الصحابي العظيم.. ابن الصحابي العظيم،الذي يعول تســع أخوات وزوجته.. يستأذن النبي ﷺ لكنه ليس كاستئذان المنافقين. لم يذهب لبيته كما يذهــب ذلك المنافق طلباً للراحة بين أهله والطعام والشــراب، لكنه رأى منظراً أحزنه وآلمه أشــدّ الألم، فلم يطق البقاء في مكانــه.. انطلق عله يجد في بيته ما يخفف تلك الآلام.. إنها على أقلّ الأحوال محاولة.

يقول رضي الله عنه: (كنّا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق نحفر فيه، فلبثنا ثلاثة أيام لا نطعم شــيئاً، ولا نقدر عليه، فعرضت في الخندق كدية[2]، فجئت إلى رســول الله ﷺ فقلت: هذه كدية قد عرضت في الخندق. «فقال رسول الله ﷺ: أنا نازل»

فرششنا عليها الماء، فقام رسول الله ﷺ وبطنه معصوبة بحجر، فأخذ المعول، أو المسحاة، ثم سمى ثلاثاً، ثم ضرب، فعادت كثيباً أهيل[3].

فلما رأيت ذلك من رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، ائذن لي. فأذن لي. فجئت امرأتي فقلت: ثكلتك أمك، إني قد رأيت من رســول الله ﷺ شيئاً لا صبر عليه «رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً»[4] فما عندك؟

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٣٠١ والبيهقي ٣-٤٢٢ حدثنا وكيع، حدثنا عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه عن جابر. وأيمن وابنه ثقتان التقريب ٣٦٦ ووكيع إمام معروف.

(٢) أرض صلبة.. صخرية.

(٣) رملاً متناثراً.

(٤) جوعاً شديداً.

قالت: عندي صاع من شعير، وعناق[1].

فطحنّا الشعير، وذبحنا العناق، وأصلحناها، وجعلناها في البرمة[2]، وعجنت الشعير، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فلبثت ساعة، ثم استأذنته الثانية، فأذن لي، فجئت، فإذا العجين قد أمكن، فأمرتها بالخبز، وجعلت القدر على الأثافي[3]، «ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه»

ثم جئت رسول الله ﷺ، فسررته، فقلت: إن عندنا طعيماً[4] لنا، فإن رأيت أن تقوم معي أنت ورجل أو رجلان معك فعلت.

فقال ﷺ: ما هو، وكم هو؟ قلت: صاع من شعير وعناق.

قال: ارجع إلى أهلك فقل لها: لا تنزع البرمة من الأثافي، ولا تخرج الخبز من التنور حتى آتي. ثم قال للناس: قوموا إلى بيت جابر، «فقام المهاجرون والأنصار».

قال جابر: فاستحييت حياءً حتى لا يعلمه إلاّ الله. فقلت لامرأتي: «قد افتضحت ثكلتك أمك، وقد جاءك رسول الله ﷺ وأصحابه أجمعون».

«فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلتُ الذي قُلت».

فقالت: أكان رسول الله ﷺ سألك عن الطعام؟ قلت: نعم.

قالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرته بما كان عندك.

فذهب عني بعض ما كنت أجد. قلت: لقد صدقتِ.

فجاء رسول الله ﷺ، فدخل، ثم قال لأصحابه: لا تضاغطوا، ثم برَّك على التنور وعلى البرمة[5]. فجعلنا نأخذ من التنور الخبز، ونأخذ اللحم من البرمة، فنثرد[6]، ونغرف، ونقرّب إليهم.

---

(١) أنثى الماعز لم تبلغ الحول.
(٢) القدر.
(٣) الأحجار التي يوضع عليها القدر عند الطبخ.
(٤) طعام قليل.
(٥) أي دعا بالبركة على التنور والبرمة أي القدر.
(٦) فته ثم بله بمرق.

وقال رسول الله ﷺ: ليجلس على الصحفة[1] سبعة أو ثمانية.

فلمّا أكلوا كشفنا التنور والبرمة، فإذا هما قد عادا إلى أملأ ما كانا، فنثرد، ونغرف، ونقرّب إليهم، فلم نزل نفعل ذلك كلّما فتحنا التنور، وكشفنا عن البرمة، وجدناها أملأ ما كانا، حتى شبع المسلمون منها «وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو» وبقيت طائفة من الطعام، فقال لنا رسول الله ﷺ: إن الناس قد أصابتهم مخمصة، فكلوا، وأطعموا، فلم نزل يومنا نأكل ونطعم)[2].

معجزة أخرى

تتحدّث عنها طفلة أنصارية.. نادتها أمها، ولما لبّت نداءها وضعت في طرف ثوبها تمرات، ثم أمرتها بالتوجه نحو أبيها وخالها وهما يحفران مع رفاقهما الخندق.

طوت تلك الطفلة البريئة تمراتها بطرف ثوبها، ثم طوت الأرض، لكن رجلاً صادفها في طريقها فأخذ منها التمر، فأخذنا منها هذه القصة المعجزة..

إنها(ابنة بشير بن سعد، قالت: بعثتني أمي بتمر في طرف ثوبي إلى أبي وخالي وهم يحفرون الخندق، فمررت على رسول الله ﷺ، فناداني، فأتيته، فأخذ التمر مني في كفّيه، وبسط ثوباً فنثره عليه، فتساقط في جوانبه، ثم أمر بأهل الخندق فاجتمعوا، وأكلوا منه، حتى صدروا عنه)[3] وقد شبعوا من التمر وهم أكثر من ألف رجل.. شبعوا من ملء الكفّين من التمر.

معجزة تزيد الطاقة والإيمان.. قدّمها ﷺ لمن يحفرون الخندق. تلك المعجزات تفتح أبواباً جديدة من الفرح والفرج للمؤمنين، وكأن ذلك الخندق ممر إلى الدنيا

---

(١) الإناء أو الطبق الذي يوضع فيه الطعام.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٢).

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق والبيهقي ٣-٤٢٧ من طرق عنه: حدثنا سعيد بن ميناء، عن ابنة بشير بن سعد: وسعيد بن ميناء الحجازي مولى البختري. أبو الوليد تابعي ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٣٤١ وابنة بشير صحابية صغيرة.

بأسرها، وكأن المعاناة في حفره معاناة ولادة النور وانتشاره، أما بالنسبة للمنافقين، فكان لبعضهم هداية، وللعنيد المكابر طوقاً يخنقهم.. هم كالكلاب ينتظرون من يمسك بطرف السلسلة ليتبعوه وهم يهزون أذيالهم.. منقادين أذلاّء.. كانت المعجزات تغيظهم، وتدفعهم إلى مزيد من العناد والمكابرة، لكن أشدّ ما أغاظهم عند حفر الخندق.. هو تلك المعجزة التـي لهج بها ﷺ، ليس لمن يحفرون الخندق فقط، بـل لأبنائهم ولمن بعد أبنائهم. ففي الوقت الذي يرتجف فيه المنافقون من الهلع.. كان ﷺ يستبشر ويبشّر بـ:

فتح فارس والروم واليمن

يعـد أصحابه بذلك وهو يضع الحجر على بطنه من الجوع.. يقول ذلك لأصحابه وهـو يحفر خندقاً يدافع به عن دولته الصغيرة، التـي لا تتجاوز حدودها حدود هذا الخندق.. يبشّـرهم وهـم جياع بكنوز فارس والروم، وقصـور اليمن، لأنه نبي، ولأنها حقيقة قادمة كشمس الغد.

يقول أحد المشاركين في الخندق: (لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة، لا تأخذ فيها المعاول. فشكونا ذلك إلى النبي ﷺ..؟

فلما رآها أخذ المعول وقال: بسـم الله. وضرب ضربة، فكسـر ثلثها، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله.

ثـم ضرب الثانية، فقطع ثلثاً آخـر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض.

ثم ضرب الثالثة، فقال: بسـم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة)[1].

---

(١) حديث حسـن وسنده ضعيف رواه أحمد ٤-٣٠٣ والبيهقي ٣-٤٢١ وسبب ضعفه هو ميمون الزاهري لكن الحديث حسن بما بعده وبأحاديث أخرى.

وصحابي آخر لم يحضر الحادثة، لكنه سمع من صحابي آخر فيقول: (إذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها، فقال نبيّ الله ﷺ: دعوني فأكون أول من ضربها، فقال: بسم الله، فضربها، فوقعت فلقة ثلثها، فقال: الله أكبر قصور الروم وربّ الكعبة. ثم ضرب أخرى بأخرى، فوقعت فلقة، فقال: الله أكبر قصور فارس، وربّ الكعبة. فقال عندها المنافقون: نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم!!)[1].

هؤلاء المنافقون هم الذين قال الله عنهم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2]

أمر هؤلاء المنافقين محير ومزعج..!! لا تدري ما الذي يريدونه، ولا ما مبدؤهم ولا هدفهم، ولا تستطيع تمييزهم بسهولة..؟

الكفر مرض والنفاق أشد منه، وجسد الدولة الإسلامية يستطيع الاحتياط والوقاية من مرض الكفر، لكن عندما يتسلّل فيروس النفاق إليه.. تبدأ رحلة طويلة ومريرة من العلاج، وتناول الأدوية والعقاقير للقضاء عليه.

وفي غزوة الخندق.. كانت الدولة الإسلامية تحتاط بالخندق من الوثنيين، لكن من الصعب حفر خندق يحول دون المنافقين المتظاهرين بالإيمان، لا سيما في هذا الوقت الذي انتهى ﷺ وأصحابه من حفر الخندق، ووصل فيه أحزاب الأصنام إلى مشارف المدينة، فعسكروا أمام الخندق، وبدأ حصار قاسٍ وشديد على المدينة.. عندها بدأ المنافقون يظهرون كالبثور الكريهة المتقيّحة على جسد المدينة.. في هذه الظروف الحرجة ظهر نفاقهم وكفرهم وحقدهم على النبي ﷺ والصحابة، ومع ذلك كلّه تمتّع ﷺ وأصحابه بأكبر قدر من ضبط النفس وعدم التهوّر بإيقاع أي عقوبة على أولئك المنافقين، الذين فاحت خيانتهم من خلال كلماتهم ونظراتهم، وحركاتهم التي كانت تفتقد إلى أقلّ معاني الرجولة والنخوة. ازداد الوضع حرجاً، فقرّر ﷺ

---

(١) حسن بما قبله رواه الطبراني رجاله ثقات لكنني لم أعثر على ترجمة لنعيم بن سعيد فيما لدي من مراجع. ثم وجدت أن هناك خطأ في اسمه حيث قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ - ١٩٠: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري وهما ثقتان. وهو كما قال، لكني لم أتأكد من توثيق نعيم.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٢.

وضع النساء والأطفال داخل أحد الحصون

وهو حصن لبني حارثة.. دخلته عائشة أثناء غزوة الخندق وتحدّثت عنه، فقالت: (إنها كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز[1] حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن)[2]، وعندما بدأت المناوشات بين جيش المؤمنين وجيوش الوثنيين كان هناك طفلان يقومان بحركات كلّها فضول وبراءة.

أسماء بنت أبي بكر وأمّ سلمة رضي الله عنهما كانتا داخل الحصن، وكان معهما طفلان كالورد: عبد الله بن الزبير ابن أسماء، وعمر ابن أبي سلمة ابن هند «أم سلمة».

وفي غفلة من أميهما صعدا إلى أحد الأسطح لمشاهدة ما يحدث خارج الحصن.. كانا قصيرين، لكن قصر قامتيهما لم يمنعهما من الإصرار على المشاهدة، فقرّرا أن يتناوبا المشاهدة.. ينحني أحدهما فيصعد الآخر على ظهره، ثم تكون نوبة الآخر في الانحناء، وهكذا..

حركات مفعمة بالبراءة والإثارة والفضول الجميل.. ها هو عبد الله بن الزبير.. سنسأله عمّا جرى..؟

إنه يقول: (جعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم[3]، يعني حصناً، ومعي عمر بن أبي سلمة، فجعل يطأطئ[4] لي، فأصعد على ظهره، فأنظر إليهم كيف يقتتلون وأطأطئ له، فيصعد فوق ظهري، فينظر)[5].

لأنه لا يستطيع سوى النظر فقط، ولا يسمح له بالمشاركة رغم حماس الأطفال وحبّهم لتقليد الكبار. بقي الأطفال كلّهم مع النساء، إلاّ من بلغ الخامسة عشر مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي كان يتحرّق للقتال يوم أُحُد، لكن النبي ﷺ ردّه، وها هو اليوم خارج حصن بني حارثة.

---

(١) أمنع.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٠) حدثنا عبد الله بن سهل عن عائشة أنها كانت.. وعبد الله بن سهل تابعي ثقة من رجال الشيخين -التقريب (٦٦٩) واسمه عبد الله بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري. قال البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة انظر: التهذيب (١٢/٢١٥) ويكنى بـ أبي ليلى.

(٣) الحصن.

(٤) ينحني.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) والبيهقي (٣/٤٣٩) واللفظ له.

ماذا قال لك النبي ﷺ يا ابن عمر..؟

يقول رضي الله عنه: (إن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه)[1]، وسمح له بالقتال والمشاركة بالمعركة، أمّا من كان دون هذه السن فقد اكتفى بالمشاهدة، حيث كانت الساحة تموج بالترقّب والتوتّر.. كان المؤمنون فيها خلف سواترهم يرقبون أي اقتحام لهذا الخندق ليضربوا ضربتهم، أمّا جيوش الأصنام فقد جنّ جنونها مما ترى أمامها من ذكاء عسكري نادر.. وقيادة لا مثيل لها.

حيّرها هذا الخندق.. هذا الإبداع العسكري الذي لم تعرفه العرب من قبل، ولم تستخدمه!!

إن اقتحامه ضرب من الجنون أو الانتحار، أما الغزو عن طريق الجهات الأخرى، فيعني التمزق والهزيمة، فهل ستكتفي قريش ومن معها من الوثنيين بالحصار والقتال عن بعد.. عن طريق التراشق بالنبل والرماية بالأسهم..؟ ربما، فلن يقدر على اقتحام هذا الخندق إلاّ شجاع أو منتحر.

ها هو الشجاع الذي سيقتحم الخندق.. ها هو وقد استطاع عبوره باحثاً عن مبارز.. إنه عمرو بن عبد ودّ:

فارس يبحث عن مبارز

وقف أمام جيش المؤمنين متحدّياً.. يفيض شجاعة وحماساً، فانبرى له حتف مخيف كحمزة.. خرج له عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فبارزه فجعله تاريخاً، وسقط عمرو بن عبد ود وسقط تحدّيه.

يقول أحد الصحابة: (قتل من بني عامر بن لؤي: عمرو بن عبد ود، قتله عليّ بن أبي طالب مبارزة)[2].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

(٢) هذا الجزء من الحديث حسن وهو ما صح من قصة علي مع عمرو بن عبد ود.. رواه الحاكم ٣-٣٢ وسنده ضعيف لأن الحكم لم يسمع هذا الحديث من مقسم لكن هذا الجزء من الحديث له شاهدان مرسلان.. عند البيهقي (٤٣٥/٣) عن عروة، وعن محمد ابن كعب القرظي فقتل علي لعمرو ثابت بهذه الأسانيد، أما تفاصيل المبارزة وما جرى من حديث فلم أجد سوى مراسيل وهي لا تتقوى ببعضها لاحتمال توحد المصدر.

انتظر الوثنيون خروجه من الخندق وسيفه يقطر بأرواح المؤمنين، لكنه لم يخرج.. لم يغادر مكانه، فليس هناك مشرك يصمد أمام سيف عليّ.

أحسّ المشـــركون بأنه لا طريق تؤدي إلى رقـــاب المؤمنين، ولا دروب إلى المدينة إلاّ طريقين لا ثالث لهما: إمّا المبارزة، وهذا الأمر بعيد جداً، وإمّا الرماية بالســـهام، وهذا هو الأمـــر الوحيد الذي يقدرون عليه، لكنه لن يجدي نفعاً إلاّ إذا تحركت قوات اليهود الخونة وخرجت من حصن بني قريظة، وبقدر ما كان الخندق يبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين.. كان حصن بني قريظة يثير الخوف والقلق في أوساط المؤمنين، لذلك قام ﷺ بتغطية كافة الاحتمالات لأن المعركة والخيانة قد تشتعلان ليلاً، فماذا فعل ﷺ؟

كلمة السر

كلمة يعرف بها المؤمنون بعضهم بعضاً متى ما دهموا ليلاً من قبل الوثنيين أو اليهود.

قال ﷺ لأصحابه: (إن بيَّتكم العدو، فقولوا: «حم، لا ينصرون»)[1]

كان ﷺ يقرأ ما حوله تماماً.. يقرأ تفكير الخيانة جيداً، ولذلك طلب فارساً من أصحابه.. يتطوّع للذهاب حيث حصن بني قريظة، كي يقدم تقريراً عن آخر تحرّكاتهم، وهل بدأوا تنفيذ مؤامرتهم مع قريش وغطفان..؟ هل بدأوا التحرك العسكري للضرب من الخلف..؟

هبّ الزبير ملبياً نداء النبي ﷺ.. حمل روحه وســـيفه وانطلق كالســـهم نحو بني قريظة، وفي طريقه مرّ من تحت ســـور حصن بني حارثة، فشـــاهده ابنه الصغير عبد الله الذي كان يطل من الحصن، بالتناوب مع صديقه الصغير عمر بن أبي سلمة.

يقول عبد الله بن الزبير: (كنت أنا وعمر بن أبي سلمة في الأطم الذي فيه نساء رسول الله ﷺ، أطم حسان، فكان يرفعني وأرفعه، فإذا رفعني عرفت أبي حين يمر إلى بني قريظة «على فرسه»، وكان يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم الخندق)[2].

---

(١) ســـنده صحيح رواه أحمد ٤-٦٥ و٢٨٩ الترمذي (١٦٨٢) وغيرهما من طرق عديدة عن أبي إســـحاق عن المهلب بن أبي صفرة عن أحد الصحابة. والمهلب من ثقات الأمراء وقد ســـمع منه أبو إســـحاق وقال عنه: ما رأيت أميراً أفضل منه -التقريب ٥٤٩.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (١/١٦٤) واللفظ له والزوائد للبخاري.

أما والده الزبير فيقول: (كان رسول الله ﷺ قال: من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟ فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه، فقال: فداك أبي وأمي)[1] فقد أدّى عملاً بطولياً، وأخبر النبي ﷺ بأن بني قريظة قد نقضوا العهد وما زالوا على خيانتهم.. تأزّم الوضع، وبدأ المنافقون بالتململ، فقد ضاقوا بمجريات الحرب، وبدأت الأزمات تكشف عن حقيقتهم، وتحرق تلك القشرة التي يختبئ كفرهم تحتها. فضحتهم الحرب، وفضحهم الله بآيات كالسيوف على رقابهم.. بدأوا يقدمون التماساتهم وأعذارهم بعدم القدرة على الصمود، نظراً للخطر الذي قد يحدث لأهلهم وبيوتهم، بعد أن رأوا السهام تمطر على جيش المؤمنين.

انسحب المنافقون الواحد تلو الآخر.. هرباً من المعركة.. كان منظرهم يجلب الإحباط والغضب لدى المؤمنين، لولا ثقتهم بنصر الله ووعده، واشتدّ الأمر على المؤمنين، وضاقت بهم السُّبل في أيام تعصف بالجوع والبرد والموت.. أعداء في الخارج أعلى المدينة، ويهود أسفلها، ومنافقون ينسحبون كالجرذان بين بيوتها، ويطالبون المؤمنين بالاستسلام والتسليم للوثنيين.

يقول سبحانه عن تلك الأيام العصيبة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟[2] وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا[3] ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا[4] ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠).

(٢) مازالوا يسمون المدينة يثرب، ويطالبون المؤمنين بالرجوع لمنازلهم لأنهم مهزومون لا محالة.

(٣) عذرهم في الانسحاب من المعركة أنهم يخافون على بيوتهم من السرقة والأعداء.

(٤) أي لو دخل الأعداء المدينة ثم طلبوا من المنافقين إعلان الكفر لأعلنوه حالاً.

يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ[1] وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ[2] ﴾[3].

أولئك هم المنافقون، وتلك هي سفالتهم وانحطاطهم.. مات فيهم كل شيء.. حتى بقايا صفات الخير التي كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بها.. حتى تلك.. ماتت داخل نفوسهم.. خنقها عفن النفاق وأجهز عليها، وها هو العفن يتطاير في أجواء المدينة.. يحاول التسلّل إلى عزائم المؤمنين ليخنقها، ليبعثر في جنباتها الإحباط. إنهم الآن بين نسائهم يأكلون ويشربون، ويبخلون بطعامهم على أولئك الصامدين أمام الخندق، وليتهم اكتفوا بذلك. إنهم يطالبون أولئك الفرسان بالانسحاب والاستسلام، لأن المعركة في نظرهم محسومة، وأبو سفيان سيحتل المدينة غداً إن لم يقم بذلك اليوم..

أولئك المنافقون نسوا كل شيء.. نسوا أن المدينة مدينتهم.. نسوا عهدهم مع الله ورسوله.. نسوا بيعتهم لله ورسوله.. نسوا وعدهم بالصمود معه ﷺ، وأن لا يفرّوا من المعركة مهما كانت النتائج.

هذا ما بدا للجميع من هؤلاء الأنذال، أمّا ما خفي فإن الله كشفه بهذه الآيات التي غرفت ما بداخلهم، وأخرجته وكشفته للجميع.. لقد شرَّحتهم الآيات، وبيَّنت للناس أيّ سرطان يتمدّد في المدينة.. فضحهم الله وبيَّن أنهم جاهزون لإعلان الكفر حالما يرون جيوشه تقتحم الخندق والمدينة، لكنهم لا يستطيعون ذلك الآن، فالنبي ﷺ لا يزال هو القائد، وخوفهم منه، وخوفهم من الموت واضح في أعينهم التي تدور كما تدور أعين الذي يعاني سكرات الموت وشدّة النزع، ويشتد دوران أعينهم أكثر ما يشتد الآن، فالخوف في كل مكان، والجوع في كل مكان، والبرد في كل مكان.. و:

---

(١) الذين يعيقون غيرهم من الجهاد والدفاع عن المدينة.. ويطالبونهم بالبقاء معهم.

(٢) يشحون على المؤمنين بالمساعدة والجهاد وحتى بالدعم المعنوي بألسنة لا خير فيهم.

(٣) سورة الأحزاب: الآيات ١٠-١٩.

القتال يشتد

و(اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر بني قريظة، فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم)[1] وغدرهم الذي لم يتزحزح حتى الآن.

كان ﷺ يخشى على المدينة منهم، فلديهم من العتاد والعدّة والحقد الشيء المخيف، ولذلك بعث الزبير مرّة ثانية حتى لا يفاجأ بجيشهم فتكون القاضية، واستأنف الوثيون رشقهم بالنبال.. كانت نبالاً طائشة وغير طائشة، وهذا ما أثار خوف عائشة..

عائشة تخاف على سعد بن معاذ

وتقول: (كان رسول الله ﷺ وأصحابه حين خرجوا إلى الخندق، رفعوا الذراري والنساء في الحصون مخافة العدو عليهم. قالت عائشة: فمرّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة[2]، وقد خرجت منها ذراعه، في يده حربته توقد، وهو يقول:

لا بأس بالموت إذا حان الأجل ... لبث قليلاً فيشهد الهيجا حمل

فقالت أم سعد: الحق يا بني، فقد والله أخّرت.

فقالت عائشة: يا أم سعد، لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي، فخافت عليه)[3].

كان خوف عائشة في محله، وكان جميل سعد وتفانيه في الدفاع عن براءة عائشة مثمناً عندها، ولن تنساه له. فـ:

هل أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه

أجل.. لقد أصابه سهم في ذراعه.. رماه مشرك يدعى (حبان بن العرقة) أصابه وهو يرتجز بهذه الأبيات المليئة بالحماس والموت، والتي ربما قالها رجل سابق اسمه: حمل.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (٣/٣١٤) واللفظ له.

(٢) ربما يعني أنها كانت تضم صدره.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٠) حدثنا عبد الله بن سهل، عن عائشة: أنها كانت.. وعبد الله بن سهل هو أبو ليلى المدني، تابعي ثقة من رجال البخاري ومسلم، وقد قال الإمام البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة - التهذيب (١٢/٢١٥) والتقريب (٦٦٩).

سعد بن معاذ.. هذا الفارس العظيم، والمؤمن النقي، الذي لا يخشى في الله أحداً، والذي دافع عن عرض النبي ﷺ أثناء إشاعة الإفك.. هذا الصحابي الجليل أصيب بسهم في ذراعه، وقد نزف دماً كثيراً وحالته خطيرة، والوضع أخطر.

اعتنى النبي ﷺ بهذا الرجل الكريم، فأمر بحمله وعلاجه، وصنع قبّة له داخل المسجد النبوي كي يزوره أهله وأصحابه، وليكون تحت سمع النبي ﷺ وبصره. لكن سعداً كان جمالاً.. كان فداءً حتى وهو ينزف.. كان محملاً بالأحلام والانتصارات والأماني.

أمنية سعد بن معاذ قبل أن يموت

تقول عائشة: (أصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة - وهو حبان بن قيس من بني معيص ابن عامر بن لؤي، رماه في الأكحل[1]، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب)[2].

وتقول رضي الله عنها: (خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي -يعني حس الأرض- فالتفتّ فإذا سعد بن معاذ ومع ابن أخيه الحارث بن أوس، يحمل مجنة، فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد، قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوّف على أطراف سعد، وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم وهو يرتجز ويقول:

ما أحسن الموت إذا حان الأجل ... ليت قليلاً يدرك الهيجا حمل

«قالت: فقمت، فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيهم عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه سبغة له، يعني مغفراً، فقال عمر: ما جاء بك.. لعمري والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء، أو يكون تحوز..؟

قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقّت لي ساعتئذٍ فدخلت فيها، فرفع الرجل السبغة عن وجهه، فإذا طلحة بن عبيد الله، فقال: يا عمر.. ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوّز أو الفرار إلاّ إلى الله عزّ وجلّ».

---

(١) عرق في الذراع.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٢).

قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من المشركين من قريش يقال له: ابن العرقة بسهم له، فقال: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله، فقطعه فدعا الله عزّ وجلّ سعد، فقال: اللّهمّ لا تمتني حتى تقرّ عيني من قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، فرقى كلمه)[1]

كان سعد يعاني من جرحه، ومازال يعاني حتى بعد توقف النزيف، لكن جرحه الآخر الذي لا يندمل ولا يبرأ هو ذلك الجرح الذي فتحه يهود بني قريظة بخيانتهم لله ورسوله، ونقضهم العهد وهم الذين يعيشون في ظل دولة الإسلام آمنين مطمئنين.

هذه هي الحرب الثانية، والخيانة الثانية التي يطعنون بها رسول الله ﷺ وأصحابه، لكنها الأشدّ، لدرجة أنهم جعلوا النبي ﷺ في حالة من القلق جعلته يبحث عن رجل يتوجّه نحو حصن بني قريظة ليرصد آخر تحرّكاتهم. وهذه هي المرة الثالثة التي يفعلها ﷺ، ومرة ثالثة يُشرق الزبير، فيكسوه النبي ﷺ لقباً بعد عودته.. لقباً يتميّز به بين أصحابه ﷺ.

لقب الزبير

يذكره جابر، فيقول: (اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتينا بخبر بني قريظة؟ فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم، ثم اشتدّ الأمر أيضاً «ثم ندب الناس، فانتدب الزبير.

ثم ندب الناس، فانتدب الزبير»، فذكر ثلاث مرات، قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي حوارياً، وإن الزبير حواريي)[2]

أي صاحبي النقي أو وزيري، والزبير يستحق ذلك بعد جهده وجهاده.. بعد أن فدى النبي ﷺ وأصحابه بروحه، ففداه ﷺ بأمّه وأبيه، وتجدّد التماهي بين القائد وجنده في أشدّ لحظات كتابة التاريخ والبطولات، وقدم الزبير للمرّة الثالثة تقريراً

---

(١) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة فسندها ضعيف لأنها من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عند أحمد ٦-١٤٢ وعمرو يحتاج إلى متابعة لقول الحافظ: مقبول أي عند المتابعة، ويشهد لبقية الحديث ما عند البخاري وابن إسحاق وغيرهما.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٤٧) وأحمد (٣/٣١٤) واللفظ له.